اللغة العربية والاسلام في الداغستان

للأستاذ برهان الدين الداغستاني

بقية ما نشر في العدد الماضي

وفي عهد الخليفة العثماني مراد الثالث لجأ كثير من أمراء وأعيان هذه البلاد إلى السلطان العثماني يطلبون منه تخليص البلاد من طغيان الفرس الإيرانيين الذين كانوا يبسطون سلطانهم على تلك الجهات، ومذهبهم الشيعي الذي كانوا يحاولون فرضه على أهل البلاد بالقوة في تلك الأيام، فجرد مراد الثالث قوات كبيرة على تلك البلاد استولت عليها في أواخر القرن العاشر الهجري ٩٨٦ هـ (١٥٧٨ م).

وهنا بدأت صفحة جديدة في تاريخ هذه البلاد، فقد نبه احتلال العثمانيين لها أطماع الروسيين في الشمال وأيقظها من جديد لأن أطماع الروسيين في تلك الربوع قديمة. وحفزت الإيرانيين في الجنوب لاسترداد مركزهم وسلطانهم في تلك الربوع، فصارت مسرح أطماع هذه القوى الثلاث الجبارة تتنازعها هذه مرة وتلك مرة أخرى، وبعد معارك طاحنة، وحروب كثيرة طويلة، وبعد مد وجزر استمر أكثر من قرنين استقر الأمر هنالك للروسيين في سنة ١٢٢١ هـ و ١٨٠٦ م حين احتلها القائد الروسي الأمير «كينياز سيبيانوف» وبسط سلطان الدولة الروسية على تلك الجهات، وقد قتل هذا القائد الروسي في تلك السنة بيد أحد أهالي الداغستان غيلة.

وقامت الثورات الوطنية في كثير من الأنحاء بمساعدة الإيرانيين تارة، وبإيماز العثمانيين مرة أخرى، وأنفة من أهل البلاد أن يخضعوا للروس تارات.

ولكن كل ذلك لم يغير من احتلال الروس شيئاً، فبقيت البلاد في قبضتهم من ذلك التاريخ.

وقد تولى أكبر تلك الثورات وأحكمها تنظيماً الأمير المجاهد «سورخان خان» الذي جمع جميع علماء وأعيان وأشراف «غازي قرون» وسائر أنحاء الداغستان وكتب معهم عهداً وميثاقاً وطنياً دينياً لمقاتلة العدو الغازي المحتل، والمحافظة على أحكام الشريعة الإسلامية، وهذا هو نص ذلك الميثاق الوطني الديني، وقد كتبوه — يوم كتبوه — باللغة العربية الفصحى:

«هذا بيان للناس من هذا اليوم، وهو اليوم الأول من ربيع الأول من السنة الثامنة والعشرين بعد الألف والمائتين.

إن الأمير الكريم «سورخاي خان»، والقاضي صنفور القمق وسائر أئمة بلدة «غموق» ورؤسائهم، وكبرائهم وعرفائهم وخواصهم وعوامهم تعاهدوا على أن يتعاونوا على البر والتقوى، وعلى أن يكونوا في أمر المقاتلة مع العدو سواء. واتفقوا على أن يكون دية كل قتيل من أهل الولاية خمسة وعشرين «تومانا» من فضة روسية أو قيمتها من غيرها، سواء كان القتل واقعاً قبل هذا البيان أو بعده وعلى أن يكون ثور فدية ممن سل سيفاً أو خنجراً أو سكيناً على مسلم، أو صاحب مثل الشخص المذكور لإعانة، وإن لم يسل هذا الصاحب شيئاً من المذكورات، وكذا الفدية ممن اشترى عرقاً، أو نبيذ عنب، وممن أعطى أو أخذ مالا بقراض فاسد. كأن يدفع قروشاً إلى آخر سنة مثلا ليأخذ منه عند تمام السنة مع القروش ربا: كيل حب أو شيئاً آخر.

وهذا المذكور مما مضى به الحكم، وجف به القلم، فمن بدله لا يسمع قوله، ولا يمدح فعله» اهـ.

وبعد عقد هذا الميثاق الوطني الديني قام الأمير «سورخاي خان» بمحاولات جدية للوقوف أمام سيل جحافل الروسيين التي انتشرت في كل مكان، ولكن على غير جدوى ولا طائل، فقد كان الأمر أخطر مما كان يقدر، فتم للروس الفتح، وبسط السلطان واضطر الإيرانيون أصحاب السلطان الاسمي على البلاد إلى موادعة الروسيين، وعقد الصلح معهم.

فاجتمع الجنرال «أنشق ريتشجوف» القائد الروسي الجديد في الداغستان، وممثل إيران مرزا أبو الحسن الشيرازي في مكان يقال له «كلستان» في «قره باغ» في الثاني عشر من تشرين الأول سنة ١٢٢٨ (١)، وعقدا معاهدة صلح عرفت فيما بعد

(١) ويقول الدكتور نبدلي جوزي: ان هذه المعاهدة تعرف بمعاهدة داغستان، وأنها عقدت سنة ١٨١٦ م.

« كلستان » ، وتنازلت الدولة الإيرانية بمقتضاها من كل حق لها فى كورجستان وطالش وقره باغ وكنجة ، وشكر، وشروان، وباكو ، وقوبة ، وجميع الداغستان ، ولكن هذا لم يفت فى عضد « سورخاى خان » فقد ظل يعمل ويجمع الجموع لقتال الروس الغـــزاة .

وفى سنة ١٢٣٥ أصدر القائد الروسى فى الداغستان الجنرال « يارمالوف » أمره إلى الجنرال « كينياز مدتوف » أن يتوجه مع جيش روسى كبير ، ومن انضم إليه من جنود بعض الأمراء المحليين الموالين للروس مثل « أرسلان خان » حاكم « كورة » إلى جهة « غازى قوق » لقتال « سورخاى خان » .

والتقى الفريقان فى قرية « جراغ » فى قتال شديد واستيسال ، ولكن جموع « سورخاى خان » التى كان جمعها هناك لم تقو على الوقوف أمام قوات الروس ، فتراجع إلى « غارى قوق » .

وفى سنة ١٢٣٦ تقابل الجنرال « مدتوف » مع « سورخاى خان » مرة ثانية بين قريتى : « جراغ » و « خوشراك » إلا أن أنصار « سورخاى خان » أصيبوا فى هذه المرة أيضاً بالإنكسار ، واضطر هو ومن بقى معه من الجيش إلى الانسحاب إلى « غازى قون » حيث أخذ منها أهله وعياله ، ثم انسحب منها إلى جهة « عندال » فى منطقة « آوار » .

ودخل الجنرال « كينياز مدتوف » إلى « غازى قون » بغير قتال ولا سفك دماء ، وأعلن بين الأهلين ضم إقليم « غازى قون » إلى إدارة حاكم « كورة » الجنرال « أرسلان خان » على شرط الطاعة للدولة الروسية .

وأما « سورخاى خان » ، فإنه توجه إلى طهران فى بلاد العجم ، وبعد محاولات كثيرة استغرقت نحو خمسة أعوام قضاها فى إيران رجع إلى الداغستان مع حملة عسكرية قوية لقتال الروسيين من جديد .

ففى سنة ١٣٤٢ هـ اجتاز « شماخى » إلى « عندال » ومنها توجه إلى قرية « ثغراك » ، ولكنه انتقل إلى رحمة الله فى « ثغراك » قبل أن يستطيع عمل شىء جدى ، ودفن فيها رحمه الله . وأما أولاده فقد تركوا تلك الجهات نهائياً ، وهاجروا إلى الدولة العثمانية بعد وفاة والدهم .

يقول مرزا حسن القدارى فى كتاب آثار داغستان : كان المرحوم « سورخاى خان » عالما فاضلا قوى المعرفة بالعلوم العربية .

. . .

وبعد دخول هذه البلاد تحت حكم الروس بمقتضى معاهدة « كلستان » أو معاهدة داغستان المعقودة بين الإيرانيين والروسيين سنة ١٨١٦ م أخذ الروسيون يجرون عليها أنظمتهم الإدارية العامة ، ويحتلون بجيوشهم المواقع الحربية الهامة احتياطاً لما عساه يفاجئهم ، لأن الأمن لم يكن استتب فى البلاد بعد . ولأن بعض أمرائها لم يكن راضياً عن دخول البلاد فى حوزة الروسيين ، ولهذا كانوا ينتهزون الفرص للانتقاض والفتك بحاميات الروس الضعيفة ، وكانوا قد ألفوا لذلك جمعية سرية حربية سنة ١٨١٨ م إلا أن قائد الجيوش الروسية الجديد الجنرال « برمالوف » لم يعبأ بذلك وظل يسير بجيوشه إلى داخل البلاد يفتح ما بقى من حصونها المنيعة ، ويحتل إمارة بعد إمارة إلى أن أذعنت له جميع الإمارات والمقاطعات المستقلة ، وأدت له الطاعة ؛ فخيل إليه أن الأمن قد استتب ، فصار يقلل من عدد الحاميات والجيوش ، ولكن سرعان ما أظهرت الحوادث غلطه فى حسن ظنه فى الأهالى . إذ لم يمض على معاهدة داغستان بضع سنوات حتى هب فى أوائل سنة ١٢٤٠ هـ أحد أبطال الجبل الغازى محمد الكراوى الأوارى فى قرية « كرا » فى رأس من رؤوس الجبل ، وثار على الحكومة الروسية ، وعلى الأمراء المحليين الذين استسلموا للروسيين ، وطالب أن تكون المعاملات وفقاً لأحكام الشريعة الاسلامية لا للعادات القديمة الباقية من جاهلية أولئك الأقوام ، وألف رسالة فى وجوب نبذ تلك العادات القديمة المخالفة للشرع وسماها « إقامة البرهان على ارتداد عرفاء داغستان » وكان من العلماء المتبحرين فى العلوم العربية والشرعية . وهو الذى يلقبه الروسيون « بقاضى ملا » ، ثم أخذ يدعو الناس إلى الجهاد فى سبيل الدين والوطن ويوحد كلمتهم ، فاجتمع لديه فى وقت قريب جمع غفير من سكان الجبل ، فبدأ فى أوائل سنة ١٢٤٢ هـ يزحف بهم إلى القلاع المتعزلة ويحتلها ، ويقتل حامياتها ، ثم تحول إلى عاصمة البلاد « درنبد » وشرع فى حصارها ، واستنفر سكان « طبسران » ، وأمة « الججن » ،

فنهضوا كلهم لنجدته وظلوا يحاربون الجيوش الروسية المنظمة حتى استشهد الامام الغازى محمد الكمراوى فى معمعة القتال بقريته « كمرا » فى ثامن جمادى الأخرة سنة ١٢٤٨ هـ (٢٩ تشرين أول سنة ١٨٣٢ م) بعد حصار طويل . على أن استشهاده لم يضع حداً للثورة ، ولا أوهنت عزيمة المقاتلين ، فخلفه على قيادة الثورة ، ورفع علم الجهاد من بعده الغازى الشهيد حمزة بك الذى قام بأعباء الثورة ونظم حركتها ، واستمر يقاتل ويجاهد حتى استشهد بعد ذلك فى أواخر سنة ١٢٥٠ هـ بقرب مدينة « خنزاخ » فخلفهما فى القيادة إمام آخر أشد منهما مراساً ، وأبعد نظراً وأكبر هيبة فى نظر الجماهير من المجاهدين والأعداء على السواء ، وأقوى على احتمال ويلات الحرب الجبلية وهو الإمام الشيخ « شامل » الذى طبقت شهرته الخافقين بما أبداه من البطولة ، وحسن الإدارة ، وتنظيم العمل ، ثم بوقوفه أمام عدو عظيم جبار مدجج بالأسلحة الجديثة تلك المدة الطويلة من سنة ١٢٥٠ هـ إلى أوائل سنة ١٢٧٦ هـ أذاق خلالها جيوش الروس الأمرين وحملهم من الخسائر فى المال والرجال ما يصعب تقديره (١) .

والشيخ شامل مثل الشيخ عبد القادر الجزائرى خرج من المشيخة إلى الإمارة ، وتناول السيف من طريق القلم — كما يقول المرحوم أمير البيان الأمير شكيب أرسلان — ولم يكن الشيخ شامل فى سعة علم سلفيه — الغازى محمد وحمزة بك — ولكنه كان أحسن منهما إدارة للأمور ، وبصيرة بالحروب ، فشمر عن ساق الجهاد ، والتف ذلك الشعب الأبى من حوله ، فذب عن حوض ملته نحو ٢٥ سنة ظفر فيها بالروس فى وقائع عديدة ، وألقى الرعب فى قلوبهم ، أو جلاهم عن جميع البلاد إلا بعض مواقع ثبتوا فيها فى الناحية الجنوبية ، وكانت أعظم الدبرات التى والاها عليهم هى فى سنتى ١٨٤٣ — ١٨٤٤ م حيث افتتح جميع الحصون التى كانت لهم فى الجبال ، وغنم منهم ٣٥ مدفعاً ، وأعتاداً حربية ، ومؤناً وافرة ، وأخذ عدداً وافراً من الأسرى فجردت الدولة الروسية بعظمة ملكها وسلطانها جيوشاً جرارة ، ونادت هى بالجهاد فى الداغستان ! . ونظم شعراء الروس القصائد فى وصف تلك الحروب (٢)

وما زالت توالى الزحوف حتى تمكنت من البلاد ، ولكن بقى الشيخ شامل عشر سنوات أخرى يناوشها القتال فى الجهات الغربية من الجبال ، ولم يسلم هذا المجاهد العظيم للروس إلا فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٥٩ م (من صفر سنة سنة ١٢٧٦ هـ) [١] فنقل هو ومن معه من عياله ومرافقيه إلى بطرسبوغ ، فاستقبله القيصر اسكندر الثانى وأكرم وفادته ، ثم نقل إلى كالوغا ، ومنها إلى كييف . وبعد أن قضى — خلافاً للعهود التى كانت أعطيت له قبل التسليم من أنهم سيرسلونه إلى خليفة المسلمين فى القسطنطينية — فى الأسر عشرة أعوام أذن له بالسفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، فسافر هو ومن معه إلى القسطنطينية حيث احتفل به السلطان عبد العزيز خان وأكرم وفادته ، ومنها ذهب إلى مكة المكرمة حيث أدى فريضة الحج فى ١٢٨٦ هـ ، ثم ذهب إلى زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة ، وبقى فيها حتى لقى ربه قبيل غروب شمس يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ١٢٨٧ هـ (٢٨ مايو سنة ١٨٧٠ م) ودفن بالبقيع عليه رحمة الله ورضوانه فى مواجهة قبر العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم .

وانتهت بذلك الحرب فى الجبل تقريباً ، ودخلت البلاد فى دور جديد من حياتها نستطيع أن نسميه دور التقرب بين الحكومة الغالبة وبين الأهالى ، ودور العمل على نشر الحضارة الجديدة بينهم ، فقد رأت الحكومة بعد ما عاينته مدة الحروب الأخيرة من تعلق سكان الجبل ببلادهم وحريتهم ، وشيوخهم وأمرائهم — أن تتقرب من هذه الطبقة صاحبة السلطان الحقيقى فى الجبل ، فودت إليهم أملاكهم التى كانت حجزتها أيام الحرب ، وأرجعت من كانت أبعدتهم عن مراكزهم أو وظائفهم إلى ما كانوا عليه . وساوت تعاملهم بالحسنى ، ثم إنها تساهلت مع الشعب فتركت له سلاحه ، وأعفته من الخدمة العسكرية وأقامت له محاكم شرعية ، ثم حطت عنه بعض الضرائب وخصصت مبلغاً معلوماً ينفق سنويا على حاجيات البلاد من الخزينة المركزية مراعية فى كل ذلك عواطف الشعب وعاداته القديمة ، واقتصاديات البلاد ، فتمكنت

١) راجع بحث الدكتور بند جوزى السالف الذكر

٢) يقول الدكتور بند جوزى : إن الكاتب الروسى الشهير الكونت تولو ستوى كان ممن اشتهر فى هذه الحروب وأبلى فيها بلاء حسناً وقد كتب فيها وهو يحارب فى الجبال قصصاً من أجمل ما كتب .

١ — راجع تعليقات المرحوم الأمير شكيب ارسلان على حاضر العالم الاسلامى ج ١ ص ٧٩ — ٨٣ من الطبعة الأولى .